المساءلة النّظريّة لمفهوم «مجتمع المعلومات»

د. الصادق الحمامي
معهد الصحافة وعلوم الأخبار
ـ تونس ـ

تواجه المعالجة النّظريّة لمفهوم «مجتمع المعلومات» مشكليّة يطرحها بشدّة الخطاب الغالب حول التّكنولوجيّات الحديثة للإعلام والإتّصال والتي يمكن أن نصوغها في السؤّال التّالي: كيف يمكن للفكر النّظري أن يسائل بطريقة نقديّة مفهوماً (مجتمع المعلومات) يحظى بالوفاق السيّاسي والإعلامي؟

وقد يعتقد البعض أنّ هذه المساءلة النّظريّة النّقديّة تعني حتماً تحليل الأبعاد السلبيّة لتكنولوجيّات الإعلام والإتّصال ومقاربة «مجتمع المعلومات» من زاوية محاسنه ومساوئه. والحقيقة أنّ خطاب الباحثين المنشغلين بمسألة «مجتمع المعلومات» قد تجاوز هذا الجدل النّظري والفكري بين المدافعين عن التّكنولوجيّات الحديثة والمبشّرين بتأثيراتها الإيجابيّة وبين الذين ينظرون إليها كعامل يهدّد الخصوصيّات الثقافيّة للمجتمعات وتوازنها. ويمكن ترتيب المهامّ المعرفيّة للخطاب النّظري حول مجتمع المعلومات على مستويات أربع :

- تحليل طبيعة السيّاقات التّاريخيّة والتّحوّلات الإجتماعيّة التي يمكن من خلالها الحديث عن «مجتمع المعلومات» (أو مجتمع المعرفة / مجتمع الشبكات) كحالة تاريخيّة للمجتمعات الحديثة.

- الاستنطاق التّاريخي لمفهوم «مجتمع المعلومات» وجذوره التّاريخيّة. إذْ يحاول الباحثون تجاوز الخطاب السّائد الذي يعتقد في الحداثة الكاملة لمفهوم «مجتمع المعلومات» والقائم على تناسي الصّيرورة التّاريخيّة المعقّدة التي تفسّر إنتصار المفهوم وكونيته الحاليّة وتجاهل تاريخانيّة عمليّة بنائه المتواصل وإنتشاره حتّى أصبح حسب البعض إيديولوجيا.

- مسألة التمثّلات السيّاسيّة والثقافيّة والإجتماعيّة السّائدة لمفهوم مجتمع المعلومات والتي يعتبرها بعض الباحثين بمثابة إيديولوجيا. ويفضي تحليل التمثّلات السّائدة إلى الكشف عن التّناقضات الدّاخليّة لخطاب يبدو بسبب كونيّته ومضمونه التّقني خارج صراع المصالح وتناقضاتها.

- البحث الأكاديمي المحض المنصبّ على تحليل التملّكات والاستعمالات الإجتماعيّة لتكنولوجيّات الإعلام والإتّصال ويعني هذا الاتّجاه أيضاً تجاوزاً

لخطاب إيديولوجي ينظر لهذه التّكنولوجيّات خارج سياقاتها المجتمعيّة، كما يكشف البحث في الاستخدامات الإجتماعيّة الطّابع الأحادي والتّبسيطي لخطاب غالب ينظر إلى «مجتمع المعلومات» كنموذج إجتماعي وثقافي مثالي وكأنّه يتحقّق ميكانيكياً خارج فعل الإنسان. ويعكس في الحقيقة هذا الخطاب تمثّلاً لا واع للتّقنية التي تتحوّل إلى عامل مستقلّ بذاته يفعل في كلّ المجتمعات بشكل لا متباين مهما كان اختلاف تركيبتها الإجتماعيّة ومهما كان تعقّد تركيباتها الثقافيّة. ويشكّل البحث في طرائق تملّك المجتمع لتكنولوجيّات الإعلام والإتّصال شكلاً من أشكال «التحقّق» من شعارات الخطاب التّسويقي المبشر بجنّة إجتماعيّة جديدة تخلقها هذه التّكنولوجيات الحاملة معها بشرى التّواصل الإنساني الحرّ والتّفاهم بين الأشخاص والمعرفة للجميع.

1 - السّياق التّاريخي والحضاري «لمجتمع المعلومات» :

إنّ الرّجوع إلى مقارنة دانيال بال هامّ جداً ذلك أنّها ساهمت في إنتاج المفاهيم المتداولة حول مسألة التحوّلات الإجتماعيّة والإقتصاديّة للمجتمعات المعاصرة في علاقتها بتكنولوجيّات الإعلام والإتّصال. وتقوم مقاربة دانيال بال والتي صاغها في كتابه «The coming of indus in social forcasting trial society venture» على فكرة أنّ تحوّلا عميقاً تشهده المجتمعات الرأسماليّة يتمثّل في نهاية النّموذج الصناعي والتي ترتبط بتطوّر المكانة الجديدة للمعلومات والمعرفة في المجتمع والاقتصاد وبأشكال إنتاجها وإدارتها وبثّها. إذ تمثّل المعرفة النظريّة المحدّد الرئيسي للمجتمعات ما بعد الصناعيّة. «بالنّسبة لي، فإنّ التحوّل الأكثر أهميّة للمجتمع المعاصر والذي لم يتحقّق بعد بصفة كاملة يتعلّق بالتّعاظم غير المسبوق لتدوين المعرفة النظريّة. إنّ الأشكال الجديدة للإبتكار (Innovation) وللتّكنولوجيا تأتي من هذا التحوّل. لقد كانت المعرفة دائماً أساساً للتّواصل وللتقدّم التّقني. ولكن تدوين المعرفة النظريّة غير مسبوق وعلاقته المباشرة بالإبتكار وبالصّناعة والإقتصاد جديدة في التّاريخ الطّويل للبشريّة، إذ يمكن تحديده حقيقة منذ قرن(1)».

ويرى دانيال بال بضرورة إعادة النّظر جذرياً لفهمنا لطبيعة التكنولوجيا «كثيرون هم الذين يستعملون كلمة التكنولوجيا بشكل عام بالرّغم من التغيّرات الكبيرة والخصوصيّات التي طرأت على الظّاهرة التقنيّة والعلميّة المعاصرة. فبالنّسبة إلى الكثيرين فإنّ التكنولوجيا هي تلك الآلات والآليّات التكنولوجيّة. ولكن التكنولوجيّات الحديثة، أساس المجتمع الما بعد الصّناعي، فهي تتميّز بأنّها «تكنولوجيّات فكريّة».

ولا يقتصر تحليل دانيال بال على فهم ماهيّة المجتمع الما بعد الصّناعي القائمة حسب نظره على أساسين كما رأينا: مكانة المعرفة النظريّة (وأشكال تدوينها الجديدة) والصّبغة الفكريّة لتكنولوجيّات الإعلام والإتّصال، بل هو يذهب إلى أبعد من هذا لفهم التحوّلات الإجتماعيّة والثقافيّة على مستوى أكثر شموليّة. إذ يرى أنّ التّكنولوجيّات الحديثة للإعلام والإتّصال لا تشكّل عاملاً مستقلاً عن التّركيبات الإجتماعيّة والثقافيّة وعن عمليّة التغيّر الإجتماعي. وتؤدّي هذه الطّريقة في وضع مشكليّة التّكنولوجيّات الحديثة إلى تجاوز النّظرة الأحاديّة لوظيفة تكنولوجيّات المعلومات.

ويرتكز دانيال بال على مثال اليابان التي لم تحقّق التفوّق المنتظر في مجالات المعلوماتيّة مثلاً على عكس الولايات المتحدة الأمريكيّة ليستخلص فكرة تأثّر ظاهرة التّكنولوجيّات الحديثة للإعلام والاتّصال بطبيعة الثقافة السّياسيّة والقيّم السّائدة في المجتمع. إذ لم يفلح اليابان في أن يتبوأ مركز القيادة في مجال الصّناعات المعلوماتيّة التي تقوم على مبدأ الإبتكار (Innovation) لأنّ المجتمع الياباني يقوم على قيم المجموعة في حين أنّ المجتمع الأمريكي يفضّل الفرد المخاطر أو المغامر.

وإذا كان دانيال بال يفضّل مصطلح «مجتمع المعلومات» على مصطلحات أخرى «كمجتمع المعرفة» و«المجتمع الذّهني» (Societe Cognitive) نظراً إلى أنّ المعلومات تلعب حسب رأيه دوراً رئيسياً في المجالات الاقتصاديّة خاصّة، فإنّ مانوال كاستالس يتحدّث عن «المجتمع الشبكي». تبدو إذن «المعلومات» الظّاهرة الأساس التي ينطلق منها المفكّرون للبحث عن طبيعة الحالة التّاريخيّة التي تمرّ بها المجتمعات الرّأسماليّة المتقدّمة، إذ يرى مانوال كستالس أن هذه المجتمعات تعيش عصر المعلومات حيث تلعب تكنولوجيّات المعلومات دوراً بنيوياً كبراديغم (Pradigme) محدّد. ويتميّز هذا الأخير بالصّفات التّالية:

على عكس الثوارات التّقنيّة السّائدة فإنّ التّكنولوجيّات الحديثة تمثّل تكنولوجيّات يمكن من خلالها الفعل في المعلومات.

لهذه التّكنولوجيّات الحديثة تأثير شامل في كلّ أوجه الحياة، إذ أنّها تؤثّر في الوجود الإنساني الفردي والجماعي من دون أن تحدّده بشكل ميكانيكي.

يمثّل المنطق الشبكي الصّفّة الثالثة لهذا البراديغم، ذلك أنّ المؤسّسات والأنظمة والمجتمعات التي تستعمل التّكنولوجيّات الحديثة للإعلام والإتّصال تشتغل وفق نموذج علائقي شبكي. ويتوافق نموذج الشبكة مع التعقّد المتعاظم للعلاقات الإقتصاديّة والإجتماعيّة والمؤسّساتيّة في المجتمعات الرّأسماليّة المتقدّمة.

وأمّا الصّفّة الرّابعة، فهي المرونة، إذ تسمح التّركيبة الشبكيّة بإعادة تشكيل المؤسّسات والتّنظيمات الإجتماعيّة وإعادة تركيب عناصرها.

وتتميّز مقاربة مانوال كستالس، تماماً كمقاربة دانيال بال، بأنّها لا تسجن نفسها داخل رؤية وصفيّة مهووسة فقط بالحديث عن التكنولوجيا والاحتفاء بتأثيراتها الإيجابيّة، إذ ينطلق مانوال كاستالس من همّ نظري مركزي وهو فهم البيئة العميقة والجديدة للمجتمعات الغربيّة. ويؤكّد مانوال كاستالس على أنّه ينطلق في مقاربته من البنيات الإجتماعيّة الجديدة التي هي في طور التشكّل والتي تنتظم بفعل منطق الشبكة: «تشكّل الشبكات المرفولوجيا الإجتماعيّة لمجتمعاتنا. أنّ تعميم منطق التشكبيك يحدّد بشكل كبير صيرورات الإنتاج والتّجربة والسّلطة والثقافة. إنّ التّنظيمات الإجتماعيّة الشبكيّة قد وجدت بالتّأكيد في فترات وأماكن أخرى. لكن الجديد اليوم هو أنّ البراديغم التّكنولوجي لتكنولوجيّات المعلومات وفّر الأسس الماديّة لتعميم هذا التّنظيم الشّبكي للبيئة الإجتماعيّة بأكملها»(2).

ويعني هذا التّعميم تحوّلا ثقافياً جذرياً للثقافة كلّها ولعلاقة الإنسان بالمكان والزّمان ولمفهوم التّجربة البشريّة. لقد كانت الطّبيعة تهيمن وتخضع الإنسان لقواها في مرحلة أولى، ثمّ بدأت الثقافة مع ظهور الحداثة والحضارة الصّناعيّة في إخضاع

الطّبيعة. أمّا اليوم «فنحن ندخل مرحلة جديدة، حيث تحيل الثقافة إلى الثقافة، وبسبب ارتباط التطوّر التّاريخي بالتحوّل التّكنولوجي، فإنّنا نجرّب نمطاً ثقافياً خالصاً للتّفاعل والتّنظيم الإجتماعي. ولهذا السّبب أيضاً أصبحت المعلومات المكوّن الرّئيسي لتنظيماتنا الإجتماعيّة، إذ تشكّل تيّارات المضامين والصور المتداولة بين الشّبكات النّسيج الأولّ لبنيتنا الإجتماعيّة ولا يعني هذا أنّ التّاريخ في طور الاحتضار تحت تأثير الزّواج السّعيد للإنسانيّة مع نفسها. إنّ ما يحدث الآن في الحقيقة هو عكس هذا تماماً. إنّ التّاريخ يبدأ فعلاً الآن، على شرط أن نفهم التّاريخ على أنّه ذلك الزّمن الذي بلغت فيه الإنسانيّة، بعد صراع تواصل الآلاف من السّنين مع الطّبيعة من أجل البقاء أو لا ثمّ إخضاعها ثانياً، درجة من المعرفة ومن التّنظيم الإجتماعي يسمح بالعيش داخل عالماً إجتماعياً بالأساس. إنّها بداية حياة جديدة أو بالأحرى بداية عصر جديد، عصر المعلومات الذي يتميّز باستقلاليّة الثقافة عن الأسس الماديّة للوجود...».

2 - في البحث عن الجذور التّاريخيّة للمفهوم :

يشير برنار مياج في محاولته لتأسيس مقاربة نقديّة لمفهوم «مجتمع المعلومات»، أنّ الجدل النّظري حول المسألة يعود إلى نهاية الستّينات حيث حاول بعض المفكّرين من أمثال الأمريكي دانيال بال والفرنسي ألان توران (Alain Touranie) والياباني يوناجي ماسودا (Yoneji Masuda) فرض فكرة «التحوّل المجتمعي» بمعنى نهاية «المجتمع الصّناعي» أو «مجتمع الإستهلاك» ويشير مفهوم «مجتمع المعلومات» من هذا المنطلق إلى حركيّة فكريّة لأوساط تتكوّن من أكاديميّين وأصحاب القرار يتميّز تفكيرهما المجتمعي بما يسمّى التّحليل المستقبلي (Prospective) ويلاحظ برنار مياج أنّه بالرّغم من النّقد الذي تعرّض له هذا الفكر المبشر بمجتمع جديد (ما بعد الصّناعي/إتّصالي) فإنّ فكرة «مجتمع المعلومات» شهدت انتعاشة جديدة ساهم فيه إلى حدّ بعيد خطاب فكري كانت له حضوة إعلاميّة كبيرة. وقد شكّل التبنّي السّياسي «لفكرة مجتمع المعلومات» من خلال أطروحة الطّرق السيّارة للمعلومات التي دعا إليها آل غور (Al Gore) مساعد رئيس الولايات المتّحدة الأمريكيّة بيل كلينتون العامل الرّئيسي في نجاحها «الإيديولوجي». وتساعد عمليّة الاستكشاف التّاريخي لهذه الجذور المعقّدة العلميّة والأكاديميّة والسّياسية لفكرة مجتمع المعلومات فهم أسباب غلبة الخطاب «الإقتصادي والتّقني» الذي يتميّز حسب برنار مياج بتمثّل سببي وميكانيكي للتحوّل الإجتماعي، «فالتحوّلات التقنيّة تفرز تحوّلات إقتصاديّة التي تؤثّر بشكل جوهري في المجتمع مماّ يؤدّي لتحوّلات سياسيّة»(3) وتقوم مقاربة برنار مياج على رفض اختزال الحالة التّاريخيّة للمجتمعات المعاصرة في مفهوم «مجتمع المعلومات». كما أنّه يدعو إلى مقاربة تواصليّة نقديّة تقوم على الشك في مقولة «مجتمع المعلومات» وعلى تجاوز النّظرة التقنيّة والانتباه «لتعقد الظواهر وتباين الرّهانات» التي تحفّ بظاهرة تكنولوجيّات الإعلام والإتّصال.

وقد قام باحثون كثيرون بعمليّة نقد «مجتمع المعلومات» «كأسطورة» وكإيديولوجيّة تعلن قيام مجتمع مختلف جذرياً عن المجتمعات السّابقة، إذ لم ينشأ مفهوم «مجتمع المعلومات» من عدم، ولا تأتي كونيّته من أنّه ظاهرة واقعيّة يعيشها الجميع، بل هناك كما يقول آرمان ماتلار «مصنعاً ينتج مخيالا حول

المعلومات» منذ السبعينات وبالتّحديد منذ سنة 1975 حيث ظهر مصطلح «مجتمع المعلومات» في أدبيّات منظّمة التّعاون والتّنمية الإقتصاديّة (OCDE) ويرى آرمان ماتلار أنّ ظهور المصطلح مرتبط بطبيعة الأزمة الإقتصاديّة التي مرّت بها الدّول الصناعيّة في تلك الفترة كنتيجة لديناميّة بدأت منذ سنة 1948 مع نوربرت فينر وكلود شانون والتي أدّت إلى «عبادة التّكنولوجيّات الحديثة». «إنّ تعريف (شانون) للمعلومة فيزيائي، وكمّي وإحصائي... إذ لا يهتمّ هذا النّموذج الميكانيكي إلاّ بالقناة وهو يعكس تصوّراً سببياً للمجتمع. ليس المتلقي سوى نسخة للباث، ولا يوجد مكاناً في برنامج شانون لبناء المعنى... لقد تحوّل مفهوم المعلومات لعلبة سوداء. كلمة صالحة لكلّ مكان وللإجابة على كلّ سؤال. لقد شاب مفهوم مجتمع المعلومات نفس الضبابيّة التي ميّزت مصطلح المعلومات وتعمّق الإتّجاه الذي ينظر للمعلومة كمصطلح ذا طابع إحصائي (معطيات وبيانات)، يحصر المعلومة في بنيتها التقنيّة. هكذا سيتركّز مفهوم أدواتي خالص لمفهوم «مجتمع المعلومات»(4).

وتكشف لنا أركولوجيا آرمان ماتلر البناء التّاريخي المعقّد لمفهوم المجتمع الجديد. فالنّسخة النّظريّة الأولى لهذا المجتمع الجديد المثالي كما يتصوّره دانيال بال يختلف عن التمثل السّائد لمجتمع المعلومات. فالمجتمع الجديد حسب دانيال بال يقوم على بنية إجتماعيّة هرميّة تحكمها نخبة مثقّفة تستلهم رؤيتها السّياسيّة من العلم وليس من الإيديولوجيا ويحرّكها تمثل لمستقبل البشريّة يقوم على ثلاثيّة التّاريخ والحداثة والتقدّم. وبالرّغم من فشل هذا النموذج الأولّ فإنّ كتابات دانيال بال نجحت حسب آرمان ماتلار في ترسيخ التمثّل التّقني لمجتمع المعلومات. ويستخلص آرمان ماتلار من تحليل هذه الفترة أنّ فكرة التّحديث وفق النّموذج الغربي)فوقوضخئضفمزمنزة(قد انتعشت من جديد من خلال انتشار مفهوم «مجتمع المعلومات» الذي ولد ونشأ داخل البيئة الثقافيّة الأمريكيّة، وبقي مرتبطاً بتحوّلات السّياسة الأمريكيّة كقوّة تقود العالم بوسائط جديدة تمثّل الشبكات جوهرها.

هكذا يسقط التّحليل الأركيولوجي قناع الكونيّة والحياديّة لمفهوم «مجتمع المعلومات» الذي يفقد كامل براءته .«تقوم المقاربة الجنيالوجيّة لفهم ما يسمّى مجتمع المعلومات، حسب أرمان ماتلارا على قناعة وعلى مشروع، إذ لا يمكن أن نؤسّس لتملّك التّقنيّة وفق مبدأ المواطنة دون نقد الكلمات التي تدّعي الحيادة والتي تهيمن على الخطابات العاديّة وعلى رؤانا الجماعيّة إنّ الخطاب التّقني والتّسويقي ينتج حداثة بلا ذاكرة وفاقدة لأيّ مشروع إجتماعي».

3 - «مجتمع المعلومات» كإيديولوجيا

تشكّل مقاربة «مجتمع المعلومات» كإيديولوجيا إتّجاها نظريّاً هاماً لدى الباحثين في علوم الإعلام والإتّصال، ويعيب هؤلاء على المفهوم ضبابيّته التي خلقت نوعاً من «الوهم الثقافي» يعتقد بسببه النّاس أنّهم يعيشون حقّاً في «مجتمع المعلومات». ويكرّس هذا «الوهم» المكانة الإجتماعيّة المتعاظمة لتكنولوجيّات الإعلام والإتّصال، كما تحيل هذه الضبابيّة إلى خطاب متناقض يعلن عن قطيعة حضاريّة جعلت من مجتمع المعلومات واقعاً ملموساً، ويطالب في نفس الوقت الأفراد والمؤسّسات والجماعات والمجتمعات بالإنخراط في «مجتمع المعلومات» وكأنّه نموذج إجتماعي كوني وضرورة حضاريّة لا يمكن تجاوزها.

كما تواجه المقاربة النقديّة بشرى «مجتمع المعلومات» التي تعدُ الإنسان بالرفّاه في جميع مجالات حياته الماديّة والروّحيّة (العمل، الصحّة، الإدارة، التّعليم، التّواصل...). فبفضل «مجتمع المعلومات» ستتمكّن المجتمعات المتخلّفة من تحقيق تنميتها الشّاملة والمستديمة وستلحق بالدّول المتقدمة. كما سيعيش الإنسان رفاها إتّصالي جديدا: فستتكاثر المعلومات والمعرفة وسيتحرّر الإنسان من الضوابط التّقليديّة التي تمنعه من الوصول بحريّة إلى مصادر المعلومات والمعرفة. كما سيتطوّر التّواصل البشري ويعمّ التّفاهم بين البشر بسبب سهولة الإتّصال بالآخر عبر الشّبكات.

تنظر المقاربة النّقديّة إلى هذه الوعود على أساس أنّها تخفي مصالح وأهدافاً معيّنة. كما أنّها ترفض النّظر إلى تأثيرات تكنولوجيّات الإعلام والإتّصال من منطلق أنّها تؤدّي إلى قطيعة أو ثورة مجتمعيّة شاملة ينتجها الإنتقال من نموذج مجتمعي إلى آخر. كما يشكّل ظهور مصطلحات جديدة منافسة «كمجتمع المعرفة» نوعاً من الاعتراف بمحدوديّة المفهوم وبضبابيّته وبعدم قدرته على أن يكون مدخلاً لفهم عمليّة التّنميّة المروجوّة وطبيعة القيم الثقافيّة الإجتماعيّة. «إنّ الجدل حول مصطلح المعلومات/مجتمعات المعرفة يطرح مسألة ما إذا كنّا نريد مجتمعاً منمّطاً أو مجتمعاً يحترم التنوّع الثقافي وأنّ ما علينا أن ننظر إلى الوسائل من زاوية القيم والممارسات الإنسانيّة»(5).

كما أنّ وعود الخطاب الإيديولوجي حول مجتمع المعلومات تتجاهل تعقّد السّيّاقات السّياسيّة والإجتماعيّة والثّقافيّة لظاهرة التحوّل المجتمعي، إذ يقوم هذا الخطاب الإيديولوجي على نظريّة سببيّة أحاديّة لهذا التحوّل وكان العامل التّقني كاف لإحداث تحوّلات ثقافيّة وإجتماعيّة ذات طابع جذري. كما أنّ الخطاب الإيديولوجي حول «مجتمع المعلومات» يختزل ظاهرة التّواصل الإنساني في بعدها التّقني المحض متناسياً تعقّد هذا التّواصل ومكانة القيم الثقافيّة في تحديده. ذلك أنّ امتلاك تقنيات الإتّصال لا يؤدّي حتماً إلى التّفاهم بين الأشخاص. يخفي إذن مصطلح «مجتمع المعلومات» الصّراعات والتّناقضات الإجتماعيّة التي لا تحلّها التّقنيّة بعصا سحريّة.

كما تندرج عمليّة نقد الخطاب الإيديولوجي حول «مجتمع المعلومات» داخل تراث نظري هام لعلوم الإعلام والإتّصال، يقوم على نقد التّوظيفات الإيديولوجيّة لمفاهيم الإعلام والإتّصال وعلى فهم السّيّاقات التّاريخيّة التي جعلت من التّواصل قيمة ثقافيّة رئيسيّة في الخطابات السّياسيّة والفكريّة في المجتمعات الغربيّة. إذ يبتغي الفكر النّظري الإجابة عن السّؤال: كيف تحوّل الإتّصال إلى قيمة مؤسّسة لأوتوبيا جماعيّة شاملة لكلّ مجالات الحياة الشخصيّة والمؤسّساتيّة والإجتماعيّة والسّياسيّة؟

هكذا، وعلى عكس الخطاب الإيديولوجي، فإنّ الفكر النّظري منشغل باكتشاف امتدادات مفهوم «مجتمع المعلومات» داخل تحوّلات الحداثة الغربيّة. ويرى فيليب بروتون (Philippe Breton) أنّ الإتّصال شكّل تاريخياً إيديولوجيا بديلة في سياق تاريخي تميّز بفشل الإيديولوجيّات التّقليديّة (كالماركسيّة) وبانهيار القيم المركزيّة للحداثة الغربيّة (التقدّم والإنسان) بعد نهاية الحرب العالميّة الثانيّة التي مثّلت قطيعة في تاريخ الحداثة، إذ أنّها كانت مسرحاً لموت هذه القيم بسبب الممارسات الوحشيّة واللاّإنسانيّة(6).

وتختزل قيمة الإتّصال تحولّات الحداثة الغربيّة وخاصّة الأزمة الفكريّة التي لحقت بها نهاية الحرب العالميّة الثانيّة واهتزاز الأسس التي قامت عليها هذه الحداثة منذ الثّورة الفرنسيّة. ويري فيليب بروتون أنّ هيمنة نموذج الإنسان التّواصلي (L'homo communicans) هو المدخل الذي يمكن من خلاله فهم إعادة تشكّل الحداثة وقيمها ونظامها المعياري. لقد تحولّ الإتّصال من هذا المنطلق إلى أوتوبيا تنظر من خلالها المجتمعات الغربيّة إلى مستقبلها الذي ينتهي حسب بروتون عند أفق المجتمع الإتّصالي. ولكن هذه الأوتوبيا الحالمة بمجتمع يقوم على الشّفافيّة والتّبادل الحرّ والحريّة ليست بريئة فهي تتضمّن نموذجاً إقتصادياً ليبيرالياً وتخفي حسب أيريك نوفو (Eric Neveu) أزمة السيّاسة وانحسار شرعيتها في المجتمعات الغربيّة وتحجب أزمة القيم والمعايير التي تقوم عليها العلاقات الإجتماعيّة. ليس الإتّصال حسب إيريك نوفو سوى قيمة تعبّر عن «فراغ» إيديولوجي انتصرت لأنّ القيم الأخرى قد انحسرت(7).

ويرى دومينيك فلتون Dominique Wolton (8) من جهته أن مصطلح «مجتمع المعلومات» مرتبط بإيديولوجيا بعينها يصفها بالتقنويّة تقوم على نظرة للتكنولوجيا على أنّها مفتاح رفاه البشريّة وأساس لعالم جديد تنتفي فيه المشاكل التّاريخيّة للإنسانيّة. كما تختزل هذه الإيديولوجيا الظاهرة التّواصليّة في «الوسائل» وتنفي الأبعاد الإجتماعيّة والثقافيّة للتواصل الإنساني. ولهذه الإيديولوجيا علاقة بتمثل مخصوص للتقدّم يقوم على نظرة تقنويّة للإنسان. وتقوم مقاربة دومينيك فولتون على المطالبة بضرورة إخضاع مفهوم مجتمع المعلومات لعمليّة النقد والبحث عن التناقضات الداخليّة لبشرى مجتمع جديد تسوده العدالة والحريّة والتّنميّة بفعل تكنولوجيات الإعلام والإتّصال ويتضمّن «مفهوم مجتمع المعلومات» حسب دومينيك فولتون خمسة تناقضات رئيسيّة تحيل لمسائل مغيبّة.

- سلعنة المعلومات : يحيل الخطاب حول الكثرة المعلوماتيّة لمشكليّة المعلومات والمعرفة كسلعة تباع وتشترى. كما أن لتكنولوجيات الإعلام والإتّصال صلة وثيقة بالنموذج الإقتصادي الرأسمالي القائم على مبادئ السوق و«سلعنة» المعلومات والتي لا ينفيها الخطاب المتفائل حول «مجتمع المعلومات» كنموذج مجتمعي قائم على حريّة الوصول إلى المعلومات وعلى تقاسمها العادل.

- المسألة الإجتماعيّة التي تهم طبيعة العلاقات الإجتماعيّة التي تنتجها التكنولوجيات الحديثة. فالوسائل الإعلاميّة «القديمة» (الإذاعة والتلفزيون والصحافة) ساهمت في تأسيس فضاء رمزي جماعي ونظام للوساطة الإجتماعيّة يشكّل آليّة رئيسيّة للإنتماء الإجتماعي. أمّا منطق التّكنولوجيا الحديثة فهو تجزيئي غير جامع، وقد يهدّد العلاقة الإجتماعيّة.

- ويشير التناقض الثالث إلى مسألة الوساطة الثقافيّة. فالخطاب حول التكنولوجيات الحديثة يبشر بمجتمع يتحرّر فيه الفرد من القيود الإجتماعيّة والمؤسّساتيّة. في حين أن إجتماعيّة الإنسان تفترض أن تتأسّس العلاقة الإجتماعيّة على وساطة بشريّة ومؤسّساتيّة.

- كما يقدّم الخطاب حول «مجتمع المعلومات» المجال الإتّصالي كفضاء للحريّة الكاملة تختزلها صورة الإبحار وكأنّ مستعمل الأنترنت ذات تتلذذ بمتعة البحث والحصول على المعلومات ولا تخضع لإكراهات عديدة. فعلى عكس الخطاب التسويقي الذي يقدّم الشبكة كفضاء حرّ، فإنّ عالم التكنولوجيا

الحديثة تحكمه أيضاً قوى مؤسّساتيّة وإقتصاديّة تخضع هذه الحريّة لتقنيات المراقبة الخفيّة ذات الأهداف السياسيّة والإقتصاديّة.

- وأخيراً فإنّ الكثرة المعلوماتيّة تحمل في طياتها نقيضها. إذ يكتشف مستعمل الشبكة أن هذه الكثرة تعني ابتذالاً للمعلومات نفسها وأن عليه أن يجتهد للهروب من هذا التدفق الهائل للمعلومات الذي أصبح بلا معنى.

4 - مجتمع المعلومات : من المفهوم إلى الاستخدامات الإجتماعيّة :

تمثل سوسيولوجيا الاستخدام الإجتماعي المحاولة النّظريّة الأكثر شمولاً للخروج عن النّموذج النّظري التّقنوي القائم على رؤية ميكانيكيّة لتأثير التّكنولوجيات الحديثة والتي تؤسّس الاعتقاد في فعاليّة هذه التّكنولوجيّات وقدرتها على إحداث تغيّرات وتحولّات ذات طابع ثوري ينتج عنها قطيعة شاملة مع النّماذج القديمة التي تحدّد المجالات الإقتصاديّة والإجتماعيّة والثقافيّة(9).

وقد قامت الباحثة الفرنسيّة جوزيان جوواي (Joziane JOUET) برصد أهمّ الإتّجاهات النّظريّة التي ساهمت في بلورة رؤية سوسيولوجيّة لما يسمّى الإستخدامات أو الاستعمالات الإجتماعيّة للتّكنولوجيّات الحديثة والتي تسمح باستكشاف العلاقات المعقّدة بين هذه التّكنولوجيّات والمجتمع والثقافة.

لقد حاولت البحوث السّوسيولوجيّة الأولى التي انطلقت مع نهاية الستينات أن تفهم الاستخدامات الإجتماعيّة لتكنولوجيّات الإعلام والإتّصال من زاوية التحولّات التي طرأت على المجتمعات الغربيّة: أزمة مؤسّسات التّنشئة الإجتماعيّة التّقليديّة كالأسرة والدّين والعائلة وانحسار الإيديولوجيّات. وقد اهتمّ الباحثون بفهم استخدام هذه التّكنولوجيّات في علاقتها بما يسمّى تنامي الاستقلاليّة الإجتماعيّة والفردانيّة والإبتكار الإجتماعي (Innovation sociale). كما برهنت الدّراسات الأولى أنّ الأشخاص يستخدمون هذه التّكنولوجيات لغايات إجتماعيّة متعدّدة (التحرّر من القيود الإجتماعيّة، بناء علاقات إجتماعيّة جديدة...). وترى جوزيان جوواي أنّ الإضافة النظريّة الأولى والهامّة لسوسيولوجيا الاستخدام الإجتماعي تتمثّل في فكرة أنّ الاستخدام الإجتماعي يتميّز بأنّه نشط وذكيّ ولا يتماهى بالضّرورة مع الغايات الأولى التي وضعها مبتكرو هذه التّكنولوجيّات.

أمّا التطوّر الثاني الذي تميّزت به هذه البحوث، فيتعلّق بإعادة الإعتبار لخصوصيّة التّقنيّة في تحديد عمليّة الاستخدام الإجتماعي إنطلاقاً من فكرة أنّ «التّقنيّة ليست محايدة». «إنّ منطق المعلوماتيّة والإلتزام بوظائف البرمجيّات وبالطّرق الإجرائيّة للآلات تؤدّي إلى إضفاء بعد تقني على العمليّة التّواصليّة وإلى اكتساب مهارات إضافة إلى الآثار الذّهنيّة النّاتجة عن التّعامل مع الحوامل الإلكترونيّة. كما تصبغ قيم العقلانيّة والنّجاعة المرتبطة بالتّقنيّة الإستخدامات الوظيفيّة والتّرفيهيّة لتكنولوجيّات الإعلام والإتّصال».

وتسمح مشكليّة «الوساطة المزدوجة» التّقنيّة والإجتماعيّة بالكشف عن العلاقة بين الإبتكار التّقني والإبتكار الإجتماعي. فالتّقنيّة تشكّل الاستخدام الإجتماعي، ولكن المعنى الذي يعطي لهذا الاستخدام

فهو يأتي من المجتمع. هكذا تنظر المقاربة السّوسيولوجيّة إلى استخدام الإجتماعي على أنّه «بناء إجتماعياً» تحكمه وساطات تشكّل العلاقة بين التّقنيّة والمستخدم الإجتماعي.

كما يهتمّ الباحثون بالتشكّل التّاريخي للاستخدامات لتكنولوجيّات الإعلام والإتّصال. فليست الاستخدامات سلوكيّات ثابتة لا تتغيّر، بل هي تتأثّر بعوامل عديدة تجعلها ظاهرة متحولّة، إذ يتغيّر الاستخدام الإجتماعي بتغيّر التّقنيّة نفسها وبصيرورة انتشارها الإجتماعي. فالهاتف الجوّال مثال هام، إذ تغيّرت وظائفه وتعدّدت كما تحولّت استخداماته الإجتماعيّة كما تطوّرت القيم الرمزيّة المرتبطة باستعماله.

وتبيّن الدّراسات السّوسيولوجيّة الوهن النّظري للخطابات الاستشرافيّة التي تتنبأ بموت الوسائط الإعلاميّة القديمة. وتسمح الملاحظة العلميّة الميدانيّة بالتخلّص من الاعتقاد في أنّ قطيعة ما تفصل المستقبل عن الماضي كما أنّها تقوم على فكرة تعقّد العلاقات بين الوسائط الإعلاميّة التي توصف بالتّقليديّة (الإذاعة والتّلفزيون والصّحافة) بالتّكنولوجيّات الحديثة للإتّصال. تقوم إذن البحوث السّوسيولوجيّة على رؤية تفاعليّة بين المستخدم والتّقنات تتداخل فيها خصوصيّات التّقنيّة والخصوصيّات الإجتماعيّة والثقافيّة لعمليّة الاستخدام. فالتّقنيات الحديثة تؤثّر في بنية وطبيعة العلاقات الإجتماعيّة، إذ أنّها تساهم في ظهور علاقات جديدة (الدّردشة الإلكترونيّة، فضاءات الحوار على الأنترنت...) كما أنّها تؤثّر في العلاقات الإجتماعيّة القديمة. وتشكّل مسألة العلاقة الإجتماعيّة محوراً رئيسياً للبحوث السّوسيولوجيّة، فهي تشمل تأثير التّكنولوجيّات في مستويات عديدة كالعلاقات بين الأفراد وظهور المجتمعات الصّغيرة على الشّبكة وعلى مستويات مجتمعيّة كتحولّات الفضاء العمومي.

وبالمقابل فإنّ الباحثين لا ينظرون فقط إلى هذه التّكنولوجيّات من زاوية ما تحدثه من متغيّرات جديدة في أشكال التّواصل الإجتماعي، ولكنّهم يهتمّون أيضاً بالتّأثيرات المجتمعيّة في هذه التّكنولوجيّات والتي تتحدّد داخل سياقات مجتمعيّة مخصوصة. كيف يمكن إذن إنطلاقاً من خصوصيّة البحث العلمي في مسألة التّكنولوجيّات الحديثة فهم علاقته بالخطاب الغالب حول مجتمع المعلومات «تقول جوزيان جوواي أنّ سوسيولوجيا الاستخدامات تقع على هامش الخطابات التّفاؤليّة والكارثيّة لمجتمع المعلومات لأنّها تقوم على ملاحظة الممارسات المعيشة. ومن هذا المنطلق، فهي تعطينا رؤية عاقلة (Desenchantee) للتّقنيات الإتّصاليّة. فمشروعها يقوم على النّظر إلى عالم الاستخدامات الإجتماعيّة في أبعاده العاديّة لفهمه...».

الهوامش:

(1) Daniel Bell : «Le savoir théorique conduit le changement», Revue Sciences Humaines, n° 32, «La société du savoir», 2001, page 64.

(2) Manuel Castells : «L'ère de l'information. 1. La société en réseaux», Paris, Fayard, 1998, Ed. Fayard, 613 p., 1998.

(3) Miège Bernard, «La société de l'information : toujours aussi inconcevable», Revue européenne de sciences sociales, tome XL, 2002, n° 123, pp. 41/54.

(4) Armand Mattelard : «Comment est né le mythe Internet», Le Monde Diplomatique, août 2000, page 26.

(5) «La société de l'information, glossaire critique», La Documentation française, Paris, 2005.

(6) Philippe Breton : «L'utopie de la communication», La Découverte, Paris, 1995.

(7) Eric Neveu : «Une société de communication», Paris, Montchrestien, Paris, 1997.

(8) Dominique Wolton «Il faut sauver la communication», Ed. Flammarion, Paris, 2005, pp. 80/86.

(9) Joziane Jouet : «Retour critique sur la sociologie des usages», Revue Réseaux, n° 100, 2000, 487 p.

Résumé

Dr. Sadok HAMMAMI

Ce texte expose les grandes problématiques d'une réflexion théorique sur la question de la «sociéé de l'information». Ces problématiques concernent :

- Le contexte historique et culturel de la société de l'information : les écrits de Daniel Bell et de Manuel Castells permettent de comprendre la société de l'information à partir des évolutions historiques des sociétés capitalistes avancées. La société de l'information est considérée ici comme la conséquence d'une mutation sociale et culturelle profonde.

- L'histoire d'émergence de la notion de société de l'information : plusieurs chercheurs se sont intéressés à l'analyse de la formation historique de la notion de société de l'information à partir d'une approche qualifiée d'archéologique et de généalogique (Armand Mattelart). Cette analyse permet de décrire le processus de promotion de la notion de société de l'information (Bernard Miège).

- L'idéologie de la société de l'information. L'analyse de l'émergence et du succès de la notion de la société de l'information est indissociable d'une réflexion générale sur le statut de la communication comme idéologie et comme utopie (Philippe Breton). L'approche critique met en cause les promesses des discours dominants sur la société de l'information et analyse les contradictions internes de l'idéologie de la société de l'information (Dominique Wolton).

- Les usages sociaux des Technologies de l'Information et de la Communication constituent une question centrale dans les recherches en sciences de l'informaiton et de la communication. Les chercheurs s'intéressent à ces technologies dans leurs contextes sociaux et analysent comment les individus et les groupes sociaux s'approprient les technologies selon des modalités complexes.